جمهورية العراق
ديوان الوقف الشيعي

مجلة فصلية محكمة

تعنى بالأبحاث والدراسات الإنسانية

تصدر عن
العتبة العباسية المقدسة
مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات
مجازة من
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
معتمدة لأغراض الترقية العلمية

السنة الثالثة. المجلد الثالث. العدد الثاني عشر
صفر ١٤٣٦هـ كانون الأول ٢٠١٤م

نظريّة العلامة وسيرورتها
عِندَ شارلس سندرس بيرس

Sign Theory
and its Existence
for Charles Sendrass Press

أ.م.د. أحمد علي محمد

جامعة بغداد

كلية الآداب / قسم اللغة العربية

Asst. Lecturer Dr. Ahmad A. M.

Arabic department

College of Atr

Baghdad Univercity

ملخص البحث

هذا البحث يسعى الى تسليط الضوء على السيميوطيقيا بوصفه الجانب الذي قدم بيرس من خلال فلسفته الخاصة بالمعنى الذي لم يتوافر لديه منه على الرغم من سعته ، سوى تلك النواة الاساسية HARD-CORE على حد تعبير شارلس بيرس.وقد اقتضت طبيعة البحث ان ينقسم على ثلاثة مطالب:

الاول: يراقب مكونات المعادلة العلامية عند بيرس وعناصرها الثلاثة:

١. الممثل او الماثول Representaive

٢. -الموضوع object

٣. -المؤول او المفسرة interpretant

الثاني: لمراقبة مسار الدلالة في المعادلة العلامية وفق المصاديق التطبيقية

الثالث: لمراقبة ثلاثية بيرس (الكبرى) على اساس التقليب الرياضي المرفوع بالقوة في متوالية تنزع الى الشمول والتناسل اللانهائي.

وانتهى البحث الى اقتراح ترسيمة عامة تتضمن اطوار التوليد العلامي وسيروتها انطلاقا من الوحدة المفهومية للعلامة وثلاثيتها الكبرى.

. . . Abstract . . .

The present research paper endeavours to shed light on semiotics through which Press broaches a philosophy concerned with content culminating in, though huge, only the hard-core as Charles Press declared. Consequently, the paper is to bifurcate into three sections:

The first is to trace the sign formula ingredients for Press that are as follows:

1. Representative
2. Object
3. Interpretant

The second is to trace the semiotic line in the sign formula according to the applying facts, however the third is to trace Press triad the great according to mathematic thinking supported by a matrix prone to universality and open ended interaction .Ultimately, the paper suggests a diagram having semiotic generation metamorphoses and their being from the sign axiom and its great triad.

... المقدمة ...

إنّ دراسة النظريّة العلاميّة لدى بيرس تعني دراسة (للمعنى) بحسب فهمه الخاص له، والمعنى عنده؛ تلك الآليّة التي يمكن أن تُدرك بها ماهيّة الأشياء، وهو، الوسيلة التي بوساطتها تعرف الماهيّات، فضلا عن معرفتها بوصفها نتائج دلالية خالصة، وبتعبير آخر فإنّ بيرس لا يكتفي بالمعنى الكامن في الأشياء، أو ما تؤدّيه هذه الأشياء من دلالات، إذ انّها متحوّلة وغير ثابتة بالمطلق، وعليه فهو مهتمّ بكيفيّة استخلاص الدلالات عبر سلسلة من النشاطات الذهنيّة المعقّدة التي يمكن أن تقود إليها العلاقات العلاميّة.

لقد كانت السيميوطيقا، إذن، ذلك الجانب الذي قدّم بيرس، من خلاله، فلسفته الخاصّة بالمعنى، والذي لم يتوافر لديه منه -على الرغم من سعته- سوى تلك النواة الأساسيّة Hard-core بحسب تعبير شارلس موريس. ولكن، ماذا عن هذه النواة الأساسيّة في إدراك المعنى؟ إنّ المعنى يستلزم إدراكا للذات، وفي الوقت نفسه، إدراكا للآخر، فلا فكاك من هذه الجدليّة المعرفيّة، حيث إنّ إدراك الأنا يتطلّب إدراك العالم، وإدراك العالم لا يستقيم من دون إدراك الأنا، أو الوحدة الذريّة الصغيرة (ولا نقول الأصغر) للعالم. (فكليّة الجزء) جزئيّة من حيث الحقيقة التي تتكوّن كليّتها من كليّات جزئيّة متعددة.

هذه الصيغة الفلسفيّة، دعت بيرس إلى خرق النظام الدلاليّ المتداول والقائم على كليّات محدّدة، موغلا في تكثير العلامة وتجزيئها إلى علامات لا متناهية، فالأنا علامة قابلة للتجزيء كما أنّ العالم علامة مكوّنة من علامات لا نهائيّة «فلا شيء

يوجد خارج العلامات أو بدونها ولا شيء يمكن أن يدلّ اعتمادا على نفسه دون الاستناد إلى ماتوفّره العلامات كقوّة للتمثيل، فالتجربة الإنسانيّة بكافّة أبعادها ومظاهرها تشتغل في تصوّر بورس كمهد للعلامات: لولادتها ونموّها وموتها»[١]. إنّ نزعة بيرس إلى التجزيء تجعلنا نعتقد بتأثره بالمبدأ الذريّ للطبيعة[٢].

وفي ضوء ما تقدّم فإنّ بيرس لا يُخرج شيئا يحمل دلالة في نفسه أو من خلال تلازمه مع عنصر ثان أو أكثر، من معادلة العلامات ونظريّتها، فلا شيء البتّة يُمكنه أن يكون حدثا أو واقعة أو شيئا خارج قانون العلامة، وهو القانون المنطقيّ نفسه. والعلامة عند بيرس، لا تتحقّق إلاّ في كينونتها الثلاثيّة: (الممثّل والموضوع والمؤوّل)، بيد أنّ هذه (العلامة) غير فاعلة في (علاميّتها) من حيث هي (نوع) ما لم تتوافر على هذه العناصر التي بوساطتها تنتقل العلامة من (النوع) إلى (الفعل) ومنه إلى (القانون)، الذي هو بحسب بيرس: «الطريقة التي يستطيع من خلالها المستقبل الذي لا نهاية له الاستمرار في الوجود»[٣]. وهنا نعرض بإيجاز لمكوّنات المعادلة العلاميّة عند بيرس، وعناصرها الثلاثة:

١. الممثّل أو الماثول Representative[٤] بالإنكليزيّة أو Representement بالفرسيّة، وقد يترجم بالم وّرة أيضا، ويريد به بيرس الشكل الذي تكون عليه العلامة، أو الهيئة التي تحيل إليه، حتى لو كانت متخيّلة، فليس بالضرورة أن يكون الممثّل شكلا ماديّا[٥]. ويشتغل الممثّل، بحسب ما يرى بيرس، «كأداة نستعملها في التمثيل لشيء آخر. إنّه لا يقوم إلاّ بالتمثيل، فهو لا يعرّفنا على الشيء ولا يزيدنا معرفة به. ذلك أنّ موضوع العلامة هو ما يجعلها شيئا قابلا للتعرّف، وهو، في الوقت نفسه، المعرفة المفترضة من خلال وجود باثّ ومتلقّ»[٦].

٢. الموضوع Object، وهو العنصر العلاميّ الذي يتولّى الممثّل عمليّة نقله وتمثيله، أي أنّ الممثّل لا يكون ممثّلا إلاّ له وبسببه، وسواء أكان هو واقعيّا أم متخيّلا أم قابلا للتخيّل أم هو غير ممكن التخيّل. وبحسب بيرس، فإنّ «موضوع العلامة هو المعرفة التي تفترضها العلامة لكي تأتي بمعلومات إضافيّة تخصّ هذا الموضوع»[٧].

وتبعا لكون العلامة لا تصلح أن تكون موضوعا لنفسها، فهي، إذن، علامة لموضوعها، ومن هنا كان موضوع العلامة علامة أخرى[٨]. ويرتبط وجود الموضوع بعمليّة التدليل السيميوزيس، فليس من الممكن إجراء خطاب يعتمد وسيلة تواصليّة ما لم يكن هناك تواضع على حزمة من الشفرات المشتركة بين المرسل والمتلقّي، وهذه الشفرات هي مادّة الرسالة وموضوعها الذي يتحقّق من خلاله التواصل.

وبموجب ذلك فإنّ الموضوع جزء لا يتجزّأ من عمليّة التدليل السيميوزيس، فالموضوع يحيل، ضرورة، على معرفة سابقة مشتركة بين طرفي أيّ فعل تواصليّ (مرسل / رسالة / متلقّ)، وبتعبير إيكو؛ فإنّ هذه المعرفة تشكّل وحدة ثقافيّة داخل موسوعة Encyclopedia، والموسوعة هنا هي المجموعة المسجّلة لجميع التأويلات التي يمكن تصوّرها من الناحية الموضوعيّة[٩]. والموضوع، من ثمّ، ينقسم على قسمين: **الأوّل**: مباشر Immediate object: وهو التعبير الذي تقدّم العلامة بوساطته ما تريد، أي هو المضمون، وهو معطى متحقّق في صلب العلامة بوصفه معلومة في سلسلة من المعلومات المشتركة. **الثاني**: ديناميكيّ Dynamic object: وهو الشيء في حدّ ذاته، أوهو المحرّك المنتج للعلامة، وعليه فهو مضمون كلّ علامة تعبر عن موضوع خارج سلسلة المعلومات المشتركة التي يتحدّد في ضوئها الموضوع المباشر[١٠].

ولتقريب ذلك، نأخذ مثالا بسيطا في العبارة: (البرتقالة المكعّبة)، وفيها (موضوعان) الأوّل هو (البرتقالة)، وهي هنا موضوع له تأريخ من المضامين والشفرات المشتركة؛ فهي في الواقع فاكهة من النباتات، كرويّة الشكل وبرتقاليّة اللون، لها طعم مميّز ونكهة خاصّة، فضلا عن احتوائها على مكوّنات، وما إلى ذلك من خواص. وكلّ ذلك الشفرات المشتركة، يجعل من البرتقالة موضوعا مباشرا، لاتفاق معرفته بين المعبّر عن الموضوع (المرسل) ومؤوّله (المتلقي). إلاّ أنّ إسناد صفة التكعيب للبرتقالة، يخرجنا من السلسلة المعرفيّة المشتركة، وينزاح بنا إلى تصوّر غير مباشر، محقّقا بذلك إضافة نوعيّة يتأسّس عبرها فعل تأويليّ جديد[١١].

٣. المؤوّل أو المفسّرة Interpretant بالإنكليزيّة و Interprétation بالفرنسيّة، ولا يريد بيرس بالمؤوّل الفاعل لعمليّة التأويل Interpreter، بل ما يُستمدّ أو يُستخلص من العلامة.

وبحسب دولو دال فـ «إنّ المؤوّل ليس هو من يؤوّل العلامة، إنّه علامة تحيل ممثّلا على موضوعه، تماما كما يقول المترجم إنّ لفظنا في لغة أجنبيّة Man في الإنكليزيّة مثلا يحيل على نفس الموضوع الذي يحيل إليه لفظ Homme في الفرنسيّة»[١٢]. وقد واجه هذا العنصر الثالث في المعادلة البيرسيّة إشكاليّة في التلقّي من جهة عدد من دارسيه، حيث انتقد بعضهم غياب المؤوّل الخارجيّ Interpreter، الذي يمثّل في تصوّرهم العنصر الرابع الذي أغفلته النظريّة البيرسيّة، معتقدين، في الوقت نفسه، أنّ استبعاده أوغيابه من المعادلة العلاميّة سيؤدّي إلى فشل عمليّة التدليل، ومن ثمّ انهيار المعادلة العلاميّة برمّتها. بل ذهب بعضهم إلى أنّ القانون الثالوثيّ Triadicity الذي وضعه بيرس لتحقّق العلامة، ما هو إلاّ تركيب اعتباطيّ يمكن استبداله بتركيب رابوعيّ Tetradicity يتضمّن المؤوّل الفاعل، وليس الصيغة فحسب[١٣].

وقد ناقش يوسف إسكندر هذه الإشكالية بتمكّن في ردّه على دوغلاس غرينلي[١٤] DouglasGreenlee، عادّا اعتراضه على بيرس في هذا الشأن نوعا من سوء الفهم، فهو يرى أنّ بيرس لم يستبعد المؤوّل من السيرورة العلاميّة Semiosis أو العمليّة التدليليّة، وإنّما هو يتماشى مع فكرة المقولات الفانيروسكوبيّة التي أقام عليها نظريّته، والتي هي في الأصل مقولات وعي، وبيرس يجذّرها في التصوّر الظاهراتيّ، لا التصوّر الوجوديّ. وفضلا عن ذلك فإنّ المؤوّل الخارجيّ Interpreter ليس مقولة بحدّ ذاته، بل هو الحامل الطبيعيّ لسيرورة العلامة ودلالتها، وعليه فإنّ المؤوّل الخارجي يمكن أن يكون عاملا ضمنيّا في العنصر الثالث (المؤوّل) أو (المفسّرة)، وليس مقولة مستقلة[١٥].

وعدا ذلك، فنحن نرى أنّ وجود عنصر رابع ليس من لوازم تحقّق العلامة، من المنظور البيرسيّ، وما قصد إليه بيرس في معادلته هو تحقّق المعنى الكامن ضمنيّا في سيرورة العلامة، بصرف النظر عن مديات التأويل غير المحدودة، التي تنتج تبعا لتعدد المؤولين الخارجيين، فالعلامة ثابتة من حيث هي معادلة قائمة في ضوء عمليّة التدليل الثلاثيّة، أمّا التأويل فهو فعل متحرّك ولا نهائي، وتعدّده يقتضي، حينئذ، وجود مؤوّلين من خارج المعادلة العلاميّة.

ولعلّ ما يزيد في إشكاليّة (المؤوّل) هو أنّ بيرس لم يعدّه تصوّرا ذهنيّا أو مفهوما لإدراك الموضوع فحسب، بل جعله (علامة) من شأنها أن تقيم الرابطة بين الممثّل والموضوع، وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أيضا، حين رأى أنّ (المؤوّل) لا يقف عند كونه علامة واحدة بسيطة فحسب، وإنّما هو علامة متولّدة بقدر ما يسمح بذلك أفق التلقّي وبقدر تعدّد احتمالات الموضوع، ولا سيّما أنّ بيرس أوجد مفهوم (المؤوّل) في سياق مستقلّ عن الذهن، فالذهن يختار من بين الاحتمالات المختلفة

احتمالا واحدا، إنّ (المؤوّل)، إذن، هو كلّ ما يمكننا معرفته عن العلامة بالفعل أو بالقوّة، وهذا ما جعله العنصر الأهم في المعادلة البيرسيّة، فالمؤوّل هو ضامن المعنى وجوهر تولّده، وهذا ما ينعقد عبر آليّة التلقّي، فالمعنى هو عملية تلقٍّ لعلامة ما ابتداءً، وشيء ما هو علامة، وتلقينا له علامة ثانية هي (المؤوّل) الذي يمنحنا القدرة على استنباط معنى العلامة الأولى، فإن كان هذا الشيء صادرا عن جهة خارجيّة، تكون العلامة الأولى (ممثّلا) حسيّا أو ذهنيّا ينوب عن معنى الشيء، الذي هو (الموضوع) = العلامة الثانية، ويكون المؤوّل هو العلامة الواجبة في إدراك المعنى وتحقيق آلية التلقي أو نجاح فعل (التواصل).

أمّا حدود العلامة ومعناها في هذا العنصر فيحكمها السياق الذي تندرج فيه، وإلاّ فهي عرضة لتوليد دلاليّ واسع، فمثال (شجرة) يمكن أن يكون في سياق سيميوطيقيّ صرفّ متوالية صوتيّة (ش.ج.ر.ة) و كلمة مكتوبة (شجرة)، وصورة فوتوغرافية أو لوحة مرسومة أو إيقونة. و يمكننا أن نتلقّى المثال نفسه، بوصفه كائنا حيّا ينتمي لفصيلة النباتات وله مواصفات خاصة يمكن تحليلها علميّا ومختبريّا. وأيضا سيكون بإمكاننا التعاطي مع المثال نفسه بوصفه رمزا للأنوثة والخصب والنماء، مثلما يكون علامة على الأمان والشبع والنار والدفء، فضلا عن إمكانيّة تلقيه في مستوى لغويّ مختلف فيكون Tree بالإنكليزيّة أو Arbre بالفرنسيّة أو Boom بالألمانيّة...إلخ[١٦].

لقد جاءت العلامة البيرسيّة بمثابة سياق نسقيّ يشتغل على وفق معطيات البروتوكول الرياضيّ ومبدأ التراتب الثلاثيّ نفسه، (فالممثّل)، في هذه المعادلة، يحيل على (موضوع) عبر مؤوّل، اتساقا مع مبدأ التراتبيّة (الأوليانيّة والثانيانيّة والثالثانيّة) التي تقدّم التعريف بها.

ولتقريب مسار الدلالة في هذه المعادلة العلاميّة نأخذ مثالا لفظيّا، وليكن في قولنا: (شجرة) التي هي في محصّلتها (علامة)، وهذه العلامة ناتجة عن (الممثّل) الذي هو المستوى الصوتيّ المتحقّق عن تتابع أصوات الحروف في (ش.ج.ر.ة)، ومن (الموضوع) الذي تحيل عليه مفردة (شجرة)، بوصف الموضوع، هنا، قاعدة الإحالة على الذات = (الشجرة)، فضلا عن ما نصطلح عليه بـ (القوّة التأويليّة) المتضمَّنة في حاصل اقتران (الممثّل/ الموضوع)، أو المتوالية الصوتيّة بالشيء الخارجيّ أو الماديّ. وينبغي على هذه (القوّة التأويليّة) إيجاد ما يسوّغ العلاقة بين (الممثّل) و (الموضوع).

إنّ معادلة العلامة متحقّقة في هذا المثال انطلاقا من فرضيّة وجود (مرسِل موجب) و(متلقٍّ موجب)؛ يعرف كلاهما اللغة التي جاءت العلامة في سياقها، أو لنقل: يستطيع كلاهما حلّ الشفرة (Code) التي تنطوي عليها العلامة. ونقترح هنا ترسيمة توضيحيّة تختصر المعادلة العلاميّة الآنفة:

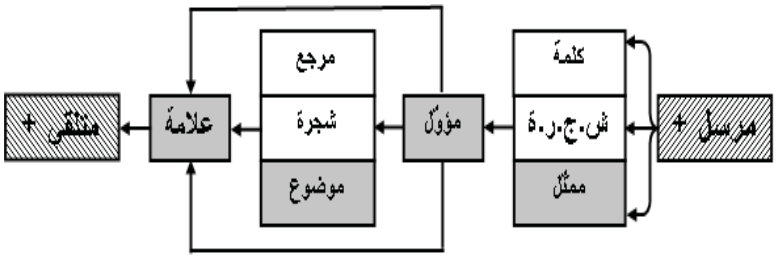

فلو اختلّ أحد طرفي المعادلة التواصليّة، فكان المرسل موجبا والمتلقي سالبا، ستكون العلامة قائمة في ذاتها، ولكنّها غير منتجة، أي أنّ الدلالة لا تتحقّق، وسيكون بالمرسل حاجة إلى وسيلة إيضاح صوريّة (إيقونة) مثلا، أو يكون عليه تقريب الهيئة الماديّة للموضوع عبر علامات إشاريّة، أو حتّى إذا اضطر إلى وضع المتلقي قبالة

(الموضوع) بشكل مباشر، وحينها سيقرن المتلقي السالب الصورة الصوتيّة لكلمة (ش.ج.ر.ة) مثلا بالواقعة العينيّة والموضوع ذاته فعليّا، وبهذا تكون العلامة منتجة والدلالة تامّة، وينتقل المتلقي من مستوى السلب إلى مستوى الإيجاب. وبتعبير آخر؛ فإنّ هذه العمليّة تمثّل نوعا من صبّ معطيات شعوريّة أو نوعيّة في تجربة قابلة للمعاينة. بيد أنّ هذه العمليّة لا تحقّق نهاية السيرورة، ولا يمكنها أن تكون فعلا راسخا للقدرة على الإدراك[١٧].

إنّ ما دعوناه رفع المتلقّي (السالب) إلى المستوى (الموجب) عبر عمليّة الربط بين المتوالية الصوتيّة في المثال السابق (ش.ج.ر.ة) والموضوع العينيّ، إنّما هو ربط عرضيّ ولحظيّ وزائل، ونحن هنا نوافق نظرة سعيد بنگراد في هذا الشأن، إذ إنّ الإدراك الفعليّ يحتاج إلى التجريد، بمعنى أن تكون التجربة قابلة للنقل. فالمتلقي الذي أطلقنا عليه صفة (السالب)، لاختلاف لغته، أو لقصور في آليّة الإدراك لديه، أو حتى لنقص معرفيّ، سيكون نقله، عبر هذه الآليّة، إلى مستوى (الإيجاب) محدودا، وما جعله يدرك أنّ هذه المتوالية الصوتيّة تدلّ على هذه الواقعة الموضوعيّة العيانيّة ذات الساق والأغصان والأوراق والثمار...الخ، المسمّاة (شجرة) يمكن أن يزول تحت أيّ مؤثر أو عامل ذاتي أو موضوعيّ، والسبب، في ذلك، عائد إلى أنّ المتلقي (السالب) لم يكن حائزا على القدرة التي تسمح له بصياغة تجريديّة لتجربة المعرفة التي تقرن بين (الممثل) و (الموضوع).

وهذه القدرة التي أطلقنا عليها (القوّة التأويليّة) هي القانون الذي يجعل من عمليّة الربط بين المتوالية الصوتيّة لـ(ش.ج.ر.ة) وموضوعها العيانيّ فعلا دائما، وبموجب هذا القانون لايكون الوجود العيانيّ شرطا في المعادلة العلاميّة، حيث أنّ قانون (القوّة التأويليّة) يجعل من (الموضوع) إنموذجا إدراكيّا في ذهن المتلقي، وهذه

المعرفة هي ما تجعل المتلقي في المستوى (الموجب) بشكل دائم. إن قانون (القوّة التأويليّة) لا يعيد إلى ذهن المتلقي الصورة الخارجيّة أو (الإيقونيّة) الجامدة لكلمة (شجرة)، فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تعريف الموضوع وتحليله بوصفه (شيئا) ينتمي إلى جنس النباتات، له ساق وأغصان وأوراق ذات لون مميّز وثمار لها مذاق خاص...إلخ.

هكذا تتفاعل العلامات الضمنيّة، منتجة الدلالة العامّة عبر العنصر العلاميّ الذي أطلق عليه بيرس مصطلح (المؤوّل)، وهذه العمليّة تمثّل سيرورة العلامة في إنتاج دلالتها، وهي ما يطلق عليها بيرس مصطلح السيميوزيس Semiosis الذي تتأسس بموجبه العلاقة السيميوطيقيّة عبر معادلتها؛ (ممثّل) و (موضوع) بوساطة (مؤوّل) وهو العنصر الواجب أو الإلزامي في تحقّق المعادلة العلاميّة[١٨].

إنّ عملية التدليل السيميوزيس، إذن، تشكّل نشاطا ترميزيّا يسهم في نقل العلامة من مستوى الكمون الذي يقتضيه نوعها، سواء أكان حسيّا أم ذهنيّا، إلى مستوى الفعل الذي يتجلّى عبر إنتاج دلالة محدّدة أو غير محدّدة للعلامة، فعملية التدليل السيميوزيس هي القوّة القانونيّة المسؤولة عن الواقعة السيميوطيقيّة، بحسب فهم بيرس، الرابطة بين عناصر العلامة الثلاثة (الممثّل) و(الموضوع) و(المؤوّل). وبتعبير آخر: فإنّ عملية التدليل السيميوزيس تتحدّد بوصفها سيرورة، «يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، وتستدعي استيعاب الكون من خلال ثلاثة مستويات: ما يحضر في العيان، وما يحضر في الأذهان، وما يتجلّى من خلال اللسان»[١٩].

وفي ضوء ذلك تكون السيرورة السيميوطيقيّة ناشطة في استدعاء (الممثّل) بوصفه أداة، أو بلغة المنطق؛ (آلة) تنوب عن العلامة الكليّة بعناصرها الثلاثة، كما تستدعي (الموضوع) بوصفه واقعة عيانيّة (ذهنيّة)، سواء أكان ماديّا أم غير ماديّ،

والغاية منه أن يمثّل (الشيء)، وليس ما ينوب عن الشيء أو يقصده أو يشير إليه، الذي هو (الممثّل). وهذه العمليّة لا يمكن إنجازها بمعزل عن وجود عنصر ثالث تكون مهمّته الربط بين (الممثّل) الذي يختصّ بالمرسل، و(الموضوع) الذي يختصّ بالرسالة، وهو (المؤوّل) الذي ينبغي أن يتوافر عليه المتلقّي أو المرسل إليه، ويكون في الوقت نفسه متفاعلا مع متضمّن الرسالة: (الممثّل)، وفحوى الرسالة: (الموضوع). ونذكّر هنا بالمثلّث الشهير الذي يختزل سيرورة العلامة البيرسيّة المركّبة بصيغته البسيطة[٢٠]:

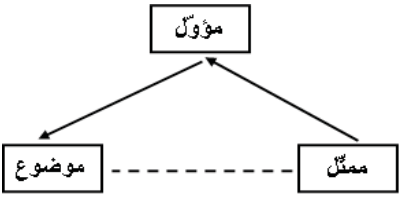

منطلقين من ذلك إلى فهم أكثر تفصيلا، وأقرب إلى الواقع من التجريد الذي طبع النظريّة السيميوطيقيّة البيرسيّة. فهذا الشكل (الثالوثيّ) صيغة ثابتة لعلامات (ثلاثيّة) متعدّدة، وفي الوقت نفسه هو المعادلة العلاميّة أو سيرورة العلامة، ولقد ميّز بيرس بين ثلاثيّته الرئيسة، وتقسيمات فرعيّة ثلاثيّة هي الأخرى، تنجم عنها تأليفات تنقسم على عشرة أقسام للعلامات، لتتشكّل عشرة توزيعات ثلاثيّة أيضا، مكوّنة، هي الأخرى، ثلاثين فئة، وهكذا دواليك. وبحسب بيرس؛ هنالك إمكانيّة نظريّة لتوليد ٥٩٠٤٩ تسعة وخمسين ألفا وتسعة وأربعين تأليفا، بينها ٦٠ ستّون تأليفا فقط يمكن أن يكون ذا قيمة[٢١]. إلاّ أنّ ما يمكن النظر فيه من هذه التقسيمات لم يتجاوز الثلاثين تركيبا من تقليبات العلامة، وهي على جانب كبير من الأهميّة، وهذا ما يدعونا إلى الحذر من اختزال نظريّة بيرس في هذا المثلّث العموميّ، على الرغم

من الغموض الذي يكتنف نظريّة العلامات البيرسيّة وسعتها المبالغ فيها، وحجم تشعّبها الذي جعلها متعذّرة على التطبيق، وما من شكّ في انّ محاولة استنطاق تلك التمفصلات تتطلب، كما يقول إيكو: «معرفة صلبة بالأسس الفلسفيّة التي يستند إليها [بيرس] في رؤيته للعلامة، وبدون ذلك لن نفهم مثلا لماذا تكون الإيقونة صورة فوتوغرافيّة وصورة ذهنيّة وصيغة جبريّة وبدون هذه الأسس الفلسفيّة أيضا لن نفهم لماذا يكون اسم ما مؤشّرا ورمزا في الوقت ذاته»[٢٢].

والحق، إنّ ادعاء فهم النظريّة البيرسيّة بشكل واف سيكون مغامرة كبيرة، كما أنّ إهمال جوانب أساسيّة من نظريّته ولا سيّما ما يختصّ منها بتقسيماته العلاميّة، كما دأب أكثر الباحثين، سيكون أمرا مخلاّ، لا ريب، في مقاربة كهذه التي نسعى إلى تحقيقها، لذا سنحاول، في ما يأتي، تشكيل هيكل أنموذجيّ يسمح بتعرّف على أهمّ أصناف العلامات البيرسيّة ويبيّن مؤدّياتها المفهوميّة.

إنّ العلامة البيرسيّة في أصلها لا تخرج عن أحد ثلاثة تصوّرات تمنح العلامة حقّها في الوجود، وتمكّنها، من ثمّ، من تحقيق الغاية منها، تلك الغاية التي تجعل من العقل والغريزة وكلّ ما هو حيّ وقابل للتحوّل أنموذجا لها، وتمظهرا معيّنا لرسائل خاصّة يتعاطاها الكون دائما، سواء أكان ذلك التعاطي قصديّا كما يحدث في إطار التواصل المجتمعيّ عند أغلب الكائنات الحيّة وعلى رأسها الإنسان، ذلك الكائن الناطق والرامز والقارئ أو مستنبط الدلالات والمعاني، أم كان عفويّا واعتباطيّا؛ ومثال ذلك الظواهر الطبيعيّة وتغيّرات المناخ وما تتضمّنه من أمارات وأعراض تحمل دلالات خاصّة ورسائل يسهل فكّ شفراتها على مستويات متفاوتة من المتلقين، سواء أكان المتلقي كائنا عاقلا أم غريزيّا (الإنسان والحيوان مثلا)، أم كان كائنا حيّا ذاتيّ الاستجابة، أو فطريّا، ولا نقول عاقلا بالضرورة، كما هي الحال في

النباتات. بل يمكننا دفع الموضوع إلى ماهو أبعد، فندرج في ذلك قوانين الفيزياء والكيمياء ونحيل قانون الجاذبية إلى هذا السياق العلاميّ، واتحاد العناصر وتنافرها، والسكون والحركة والضوء والحرارة وما يرتبط في ذلك، نحيله جميعه، إلى نوع من التراسل العلاميّ، أو (الخطاب) العامّ الذي يساوي (=) الحياة وديمومتها في المنحى الوجوديّ لفلسفة العلامة. وكلّ هذا ماثل في ثلاثيّة بيرس (الكبرى)، وندعوها (الكبرى) كونها لاتقف عند حدودها الأصليّة أو المباشرة أو الأوليّة، بل تستمرّ في عمليّة توليد دلالاتها على أساس التقليب الرياضيّ المرفوع بالقوّة في متوالية تنزع إلى الشمول والتناسل اللانهائيّ. وتنطلق هذه العلامة من علاقتها:

١. بماهيّتها أو ذاتها أو كينونتها، بوصفها علامة (أوليّانيّة) طبقا لمبدأ التراتب الذي أطلق عليه بيرس (البروتوكول الرياضيّ). وهذه العلامة تتفرّع بدورها إلى ثلاثيّة جديدة يرمز لها بيرس بصيغة رياضيّة مجردة هي: (١, ١ و ٢, ١ و٣, ١) على التوالي، لتتطابق هذه الرموز الرياضيّة مع العلامات: (١. النوعيّة) و (٢. الفرديّة) و (٣. المعياريّة). وتحتلّ هذه العلامة أحد طرفي قاعدة المثلث العلاميّ وعلى وفق الترسيمة الآتية:

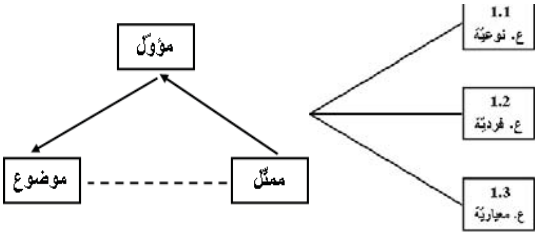

٢. بموضوعها، بصرف النظر عن كون هذا الموضوع شيئا واقعيّا أو متخيّلا أو حتّى قابلا للتخيّل، وهذه العلاقة هي التي تمنح العلامة القدرة على الانزياح عن

الخصائص الذاتيّة للشيء الذي يتمثّل عبر تلك الخصائص، ويسهم الموضوع، حينئذ، بتسهيل آليّة النفاذ إلى دائرة العلاقة مع شيء ما[٢٣]، وهذا ما يضع علامة ما في علاقتها بموضوعها، موضع المرتبة (الثانيانيّة)، التي ينظر إليها بيرس على انها: « نمط وجود الشيء كما هو في علاقته بثان دونما اعتبار لثالث. إنّها تعين وجود الواقعة الفرديّة»[٢٤]. وقد رمز بيرس لهذه العلامة رياضيّا بـ: (٢ , ١ و ٢ , ٢ و ٢ , ٣)، وعلاماتها: (١. الأيقونيّة) و (٢. المؤشّريّة) و (٣. الرمزيّة). وتتموضع هذه العلامة في الطرف الآخر لقاعدة المثلّث العلاميّ، وبحسب هذه الترسيمة:

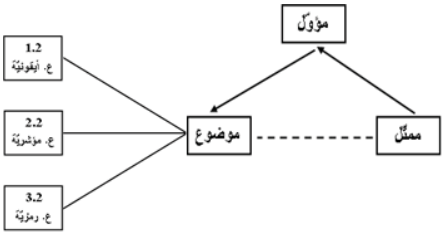

٣. بمؤوّلها، ومحمول هذا المؤوّل، القدرة على الإدراك، أو ما أطلقنا عليها: (القوّة التأويليّة)، فالإنسان إنّما يكون موجودا من خلال احتكاكه وتفاعله وانفعاله مع عالم الوجود، حسيّا كان هذا الوجود أم عقليّا، فنظام التواصل اللغويّ والرمزيّ والإشاريّ، وسيلة للتعاطي الإيجابيّ مع الوجود، ومثله المفاهيم الثقافيّة من أديان وأساطير وخرافات، بل حتّى المقولات الزمانيّة والمكانيّة التي تقتضي عمليّة التنافذ التأريخيّ من الناحية الذهنيّة والفكريّة في سياق إبستيمولوجيّ يقرأ الزمان عبر المكان باستنطاق الشواهد الحضاريّة والعمرانيّة، فضلا عن الآثار والبقايا...إلخ.

وهذا ما يواشج بين الإنجازات العلميّة والمخبريّة من جهة، والفرضيّات القائمة على التأمّل والخيال والفنّ من جهة أخرى، وجميع ذلك إنّما يقتضي هذه العلامة القائمة عبر علاقتها مع المؤوّل الذي جعله بيرس في الرتبة (الثالثانيّة) الواجبة الحضور في السيرورة العلاميّة بمجملها، وهذه العلامة هي ما يسوّغ العلاقة بين العنصرين الآنفين، وما يمنح المعادلة العلاميّة بعدها الفكريّ، وبعبارة أخرى: «هي الشرط الضروريّ لإنتاج القانون والضرورة والفكر والدلالة. فلا يمكن للأول أن يحيل على الثاني إلاّ من خلال وجود عنصر ثالث يربط بينهما ويضعهما في علاقة. وعلى هذا الأساس، فإنّ الثالثانيّة هي مقولة التوسّط بامتياز»[٢٥].

وجريا على تقسيماته النسقيّة السابقة، رمز بيرس لهذه العلامة رياضيّا بـ: (٣, ١ و٣, ٢ و٣, ٣)، ومنحها المصطلحات الخاصّة بها وهي: (١) الخبريّة و(٢) التصديقيّة و (٣) البرهانيّة، التي تتفرّع عن رأس مثلثه العلاميّ، مشكّلة بذلك امتدادا جوهريّا للعنصر الأهم في المعادلة العلاميّة، الذي هو المؤوّل، وهذه الترسيمة الخاصّة به:

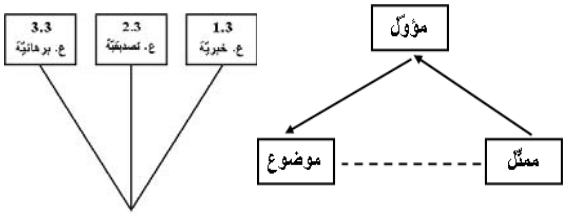

إنّ هذه التوليفات العلاميّة التسعة[٢٦] التي ولّدها بيرس تولّد، ايضا، عشرة مستويات علاميّة مركّبة من تقليبات تمزج بين وحدات علاميّة معيّنة، تشكّل نظاما رياضيّا خاصّا لا يسمح بتكرار العلامة ذاتها في نسق ثلاثيّ واحد، لكنّه يفسح في المجال لوحدتين متفرّعتين عن الثلاثيّة العلاميّة الأولى بمشاركة وحدة ثالثة مستقلة، متفرّعة هي الأخرى عن إحدى العلامات الثلاث الأولى، التي أطلقنا عليها تسمية العلامة الكبرى، لتكوّن هذه التركيبة الجديدة علامة ثلاثيّة لها محمولاتها الموضوعيّة

ومدياتها الدلاليّة الخاصّة. وقد حملتنا هذه الصياغة السياقيّة في توليد العلامات وفتح فضاءاتها التأويليّة على أن نطلق عليها تسمية (الكيمياء العلاميّة)، حيث يعمد بيرس في هذه الطور من التوليد العلاميّ، إلى مزج عناصر العلامة بعضها ببعض، بهدف تفعيل السيرورة الدلاليّة وتوليد علامات أكثر تطوّرا وأشدّ تعقيدا، بسبب من التركيبة التي تنتج علامات، هي بمثابة مؤوّلات لا متناهية للعلامة الأولى كما عدّها بيرس نفسه(٢٧).

وهذه المركّبات العلاميّة العشرة التي سنوردها في ما يأتي، تمثّل النتائج الصحيحة للعمليّة الكيميائيّة العلاميّة التي يستخلصها بيرس من مزاوجة العناصر العلاميّة في ما بينها، والتراكيب الممكنة في هذه العمليّة تعطينا ناتجا محدّدا؛ هو حاصل رفع العدد (٣) بالقوّة الثالثة، أي (٣x٣x٣=٢٧)، إلاّ أنّ تراتبيّة المقولات التي يطبّقها بيرس على العلامات تجعله يستبعد سبعة عشر تركيبا منها، كونها لا تعطي نتائج صائبة(٢٨)، إذ أنّها لا تسمح للعنصر المؤوّل في أخذ موضعه المتوسّط من المعادلة العلاميّة، الذي من شأنه أن يؤدّي إلى إحالة الممثّل على موضوعه، ومن ثمّ، تحقيق السيرورة الدلاليّة التي تقتضيها نظريّته السيميوطيقيّة. وقد وضع بيرس جدولا توضيحيّا يجمع المركّبات العلاميّة العشرة الناتجة عن التوليفات التسعة الأوليّة، يبرز فيه التقارب بين هذه المركّبات، وهذه هيئته(٢٩):

X 3.3-3.2-3.1 علامة معيارية. رمزيّة. برهانيّة	VIII 1.3-3.2-3.1 علامة معياريّة. رمزيّة. خبريّة	V 1.3-1.2-3.1 علامة معياريّة. إيقونيّة. خبريّة	I 1.3-1.2-1.1 علامة نوعيّة. إيقونيّة. خبريّة
IX 2.3-3.2-3.1 علامة معياريّة. رمزيّة. تصديقيّة	VI 1.3-2.2-3.1 علامة معياريّة. مؤشّريّة. خبريّة	II 1.3-1.2-2.1 علامة فرديّة. إيقونيّة. خبريّة	
VII 2.3-2.2-3.1 علامة معياريّة.مؤشّريّة. تصديقيّة	III 1.3-2.2-2.1 علامة فرديّة. مؤشّريّة. خبريّة		
IV 2.3-2.2-2.1 علامة فرديّة. مؤشّريّة. تصديقيّة			

في ختام مقاربتنا التأطيريّة لنظريّة بيرس العلاميّة، نقترح ترسيمة عامّة تتضمّن أطوار التوليد العلاميّ، وسيرورتها انطلاقا من الوحدة المفهوميّة للعلامة، وثلاثيّتها الكبرى، مرورا بأقسام العلامة وتوليفاتها ومركّباتها، مزاوجين في ذلك بين الرموز الرياضيّة التي اعتمدها بيرس، والمصطلحات الدّالة عليها، التي اعتمدناها في أثناء هذا البحث:

1	1.3-1.2-1.1	نوعيّة ↔ أيقونيّة ↔ خبريّة
2	1.3-1.2-2.1	فرديّة ↔ أيقونيّة ↔ خبريّة
3	1.3-2.2-2.1	فرديّة ↔ مؤشريّة ↔ خبريّة
4	2.3-2.2-2.1	فرديّة ↔ مؤشّريّة ↔ تصديقيّة
5	1.3-1.2-3.1	معياريّة ↔ أيقونيّة ↔ خبريّة
6	1.3-2.2-3.1	معياريّة ↔ مؤشّريّة ↔ خبريّة
7	2.3-2.2-3.1	معياريّة ↔ مؤشّريّة ↔ تصديقيّة
8	1.3-3.2-3.1	معياريّة ↔ رمزيّة ↔ خبريّة
9	2.3-3.2-3.1	معياريّة ↔ رمزيّة ↔ تصديقيّة
10	3.3-3.2-3.1	معياريّة ↔ رمزيّة ↔ برهانيّة

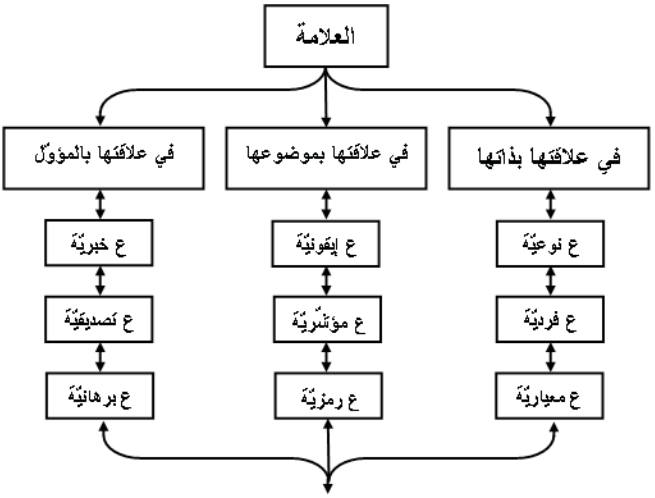

١. السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، ص٧٢.

٢. عرفت الفلسفة القديمة النظريّة الذريّة للطبيعة والعالم، ابتداء من لوقيبوس وديموقريطس في القرن الخامس ق.م، وطوّرها إبيقور. وتقوم الفلسفة الذريّة القديمة على مبدأ تألّف العالم مما هو موجود، وما هو غير موجود، الملاء والفراغ = الوجود والعدم، وكان الفلاسفة القدماء ينظرون إلى أنّ العدم موجود في حقيقته، وهو لا متناه في امتداده، كما أنّ الوجود لا متناه في وجوديّته التي تتجزأ في ذرات لا متناهية العدد، ولا متناهية التنوّع في أشكالها وأنواعها وأحجامها. وبقي هذا المبدأ معروفا في الفلسفة لم يطرأ عليه تغيير إلا في حدود ضيّقة، ومع العصور الوسطى شهد هذا تراجعا بسبب صعود الفلسفات الدينيّة، إلاّ أنّ اهتمام بعض الفلاسفة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، بينهم فرانسيس بيكون وإسحاق نيوتن وجاليليو غاليليه أعاد الاعتبار لهذا المبدأ، وكانت ولادة النظرية الذريّة الحديثة على يد العالم رودجر بُسْكوفتْش اليوغوسلافي المولد في عام ١٧٥٠م، حيث خرج بفكرة مؤدّاها أنّ الذرّة تحتوي على أجزاء أصغر، وهذه بدورها تحتوي على أجزاء أصغر وأصغر وهكذا، حتى وحدات البناء الأساسيّة للمادّة. ورأى أيضا أنّ وحدات البناء هذه لابدّ أن تكون نقاطا هندسيّة بلاحجم على الإطلاق. واليوم يعتنق أغلب علماء الذرّة صورة حديثة لفكر بُسْكوفتش، الذي كان مدار اهتمام علماء وفلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع

عشر، ونرجّح أن تكون هذه النظريّة الفيزياويّة الفلسفيّة منطلقا لفكرة بيرس في السيميوطيقا الشموليّة. وللمزيد بهذا الشأن، ينظر: الموسوعة الفلسفيّة المختصرة، مادة الذريّة، ص١٥٢.

٣. Peirce (C S): Ecrits sur le signe, Ed seuil, Paris, 1978, p.98.

٤. نقلا عن السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٦٦.

٥. وبالإنگليزيّة التي كان يكتب بها بيرس كان المصطلح يكتب بهذه الصيغة: representamen.

٦. يقابل هذا المصطلح (الدّال) السوسوريّ، ولا سيّما في إشارته لما هو غير ماديّ، وفي حال أشار الممثل إلى ما هو ماديّ (عيانيّ)، فإنه يؤشّر إلى ما يعرف بـ(وعاء العلامة) = Sign Vehicle، أو وسيلة العلامة لتوصيل المعنى، ينظر: معجم المصطلحات الأساسيّة في علم العلامات، دانييل تشاندلر، ص١٨٣.

٧. السيميائيّات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٩٦، ويحيل بنگراد في الهامش إلى بيرس من دون ذكر لمصدر محدد، مكتفيا بإيراد رقم الصفحة ١٢٣، ثم يعود لينقل النص نفسه في كتاب لاحق، محيلا في الهامش إلى: Carontini (Enrico): Action du signe, Ed Louvain-Laneuve 1984 p.25، ينظر: السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٧٨-٧٩.

٨. السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٨١. ويحيل في الهامش على: Peirce (CS): Ecrits sur le signe, p 123.

٩. ينظر: المصدر السابق، ص٧٢. ويحيل في الهامش على Peirce; cité in Calvet de Magalhaes (Theresa): Signe ou Symbole Introduction à la sémiotique C S Peirce Ed Cabay 1981 p. 162.

١٠. ينظر: السيميائيّة وفلسفة اللغة، إمبرتو إيكو، ص٤٦٣.

١١. ينظر: المصدر السابق، ص ص٤٦٣-٤٦٤.

١٢. ينظر: السيميائيّة وفلسفة اللغة، إمبرتو إيكو، مصدر سابق، ص ص٤٦٣-٤٦٤. وينظر أيضا: السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٨٦.

١٣. السيميائيّات أو نظريّة العلامات، جيرار دولو دال وجوويل ريطوري، مصدر سابق، ص٣٠-٣١.

١٤. ينظر: اتجاهات الشعريّة الحديثة، د. يوسف إسكندر، ص ص١٥٥-١٥٦، ويحيل في الهامش إلى: D. Greenlee: Peirce›s Concept of Sign, mouton 1973, p.p.26-27. وينظر أيضا: معجم المصطلحات الأساسيّة في علم العلامات، دانييل تشاندلر، مصدر سابق، ص٩١.

١٥. أحد أهم النقاد المعاصرين الذين درسوا سيميوطيقا بيرس. له أطروحة دكتوراه بعنوان Peirce›s Concept of Sign، وكانت له آراء معترضة على النظريّة الثلاثية لسيرورة العلامة،

وله دراسة خاصّة بعنوان لماذا ثلاثيّة Why Triadic، ناقش فيها التحديات التي تواجه التركيبة السيميوطيقيّة البيرسيّة، ينظر للمزيد: http://www.paulburgess.org/triadic.html

١٦. ينظر: اتجاهات الشعريّة الحديثة، د. يوسف إسكندر، مصدر سابق، ص١٥٦.

١٧. ينظر: السيميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد، سيزا قاسم، ضمن مدخل إلى السيميوطيقا، مصدر سابق، ص٢٧.

١٨. ينظر: السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٧٥.

١٩. ينظر: السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٧٥.

٢٠. السيميائيّات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص ص٩١-٩٢.

٢١. ينظر: المصدر السابق، ص٧٧.

٢٢. ينظر: العلامة ـ تحليل المفهوم وتأريخه، أمبرتو إيكو، مصدر سابق، ص١٠٨.

٢٣. المصدر السابق، ص١٠٩.

٢٤. ينظر: السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص٦٦.. :Carontini (Enrico) Action du signe, Ed Louvain-Laneuve 1984, p.17. نقلا عن المصدر السابق، نفسه

٢٥. السيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق، ص ص٦٦-٦٧.

٢٦. اجتهد الباحث في اختيار المصطلحات الخاصّة بهذه العلامات الثلاثيّة المتولّدة عن المثلّث العلاميّ الأول، مغلّبا في ذلك الوضوح وسهولة الجرس اللفظيّ وسلامة اللغة، ولم يتّبع أحدا بعينه من الباحثين أو المترجمين في اختيار البدائل الاصطلاحيّة التي اقترحوها، ويلاحظ في هذا الصدد أنّ مصطلحات بيرس السيميوطيقيّة تشكّل عائقا مضافا أمام إدراك نظريّته، وفي مستواها المترجم تبلغ الفوضى ذروتها، حد التناقض وسوء الفهم ومجانبة الذوق اللغوي، وفي الجملة فقد أفاد الباحث هنا من مصادر مختلفة، أهمها: العلامة تحليل المفهوم وتأريخه، أمبرتو إيكو، مصدر سابق. والسيميائيّات أو نظريّة العلامات، جيرار دولو دال وجوويل ريطوري، مصدر سابق. والسيميائيّات والتأويل، سعيد بنگراد، مصدر سابق. وتيّارات في السيمياء، دراسة، عادل فاخوري، مصدر سابق، لذا اقتضت الإشارة.

٢٧. ينظر: العلامة ـ تحليل المفهوم وتأريخه، أمبرتو إيكو، مصدر سابق، ص٢٧٠.

٢٨. ينظر:السيميائيّات أو نظريّة العلامات، جيرار دولو دال و جوويل ريطوري، ص١١٥.

٢٩. ينظر جدول المركّبات العلاميّة في السيميائيّات أو نظريّة العلامات، جيرار دولو دال وجوويل ريطوري، مصدر سابق، ص١١٩، وقد حمل عنوان مثلّث أقسام العلامات، وجاء الجدول في صيغة رياضيّة مجردة. كما ينظر أيضا في تيّارات في السيمياء، دراسة، عادل فاخوري، مصدر سابق، ص٧٦٢، مع اختلافات في الصيغة الاصطلاحيّة والمضمونيّة.